محاضرة: الرواية العربية المعاصرة

إن التجربة الروائية العربية، برغم من تأخرها مقارنة بالتجربة الغربية عامة، وبرغم السلبيات التي لا يخلو منها أي نص أدبي متميز، فإنها تجربة أتاحت لكتابها الحضور والإعلان عن ذاتهم المبدعة كما استطاعت إثارة المتلقي، وقد حققت مكانة ضمن المنجز الروائي عموما، فهي تجربة تستحق وقفة طويلة ومتأنية، فيها نماذج ناضجة وثرية، وأخرى ناشئة وواعدة تستحق التشجيع والأخذ بيدها لبلوغ المبتغى.

وقد برزن محاولات عدة لتصنيف الكتابة الروائية منها: (السياسي الذي مرحلة ما قبل الاستعمار /الاستعمار/ ما بعده، ثم التصنيف الاجتماعي: الكلاسكية/ الرومانسية / الواقعية وأخيرا الفني: الاقتباس والتعريب/ الترجمة/ التأسيس)

كما حاول البعض تبويبها حسب المواضيع والتيمات مميزا بين رواية الحروب، العاطفية، البوليسية ... في حين تم تصنيفها من قبل آخرين حسب القطري الجغرافي : بدراسة الرواية حسب الأقطار (الرواية المصرية/ السورية/ اللبنانية/ المغربية ...)

وبدأت الرواية العربية في التأسيس لنفسها مع جيل يحي حقي ووصلت إلى مرحلة التبلور والتأصيل مع رفاق نجيب محفوظ، وانتهت إلى مرحلة التحديث مع عبد الرحمان منيف وحيدر حيدر وحنا مينه ...

فنتجت رواية معاصرة تساير عامل الفوضى والإرباك اليومي وتحاكي التعقيد لها بعض الخصائص التي تفردها كحضور الفردانية والدغمائية: فهيمن ضمير المتكلم بدلا من ضمير الغائب، وسعت إلى اعتماد لغة إيحائية تصويرية بعيدة عن التقريرية والمباشرة المألوفة في رواية الخمسينات والستينات التي التقطت أبطالها من حواف المجتمع ، وعوضت البطل الوطني الذي هيمن خلال مرحلة الاستعمار ببطل اجتماعي تمثل في الموظف والمقهور الذي كان يكابد الزمن من أجل تأمين لقمة العيش، قبل أن تتورط روايات سبعينيات القرن العشرين في الإيديولوجيا فاستضافت الرواية بطلا رئيسيا جديدا تمثل في المناضل السياسي التقدمي المستعد لقضاء زهرة عمره في السجون من أجل مواقفه وأفكاره...

ثم انتقلت الرواية إلى استخدام المزج بين الأجناس الأدبية، فتميزت الرواية المعاصرة بعمق الرؤية وإثارة الأسئلة الكبرى، أكثر من البحث عن الأجوبة، فوجد القارئ نفسه أمام روايات شعرية، وروايات دسمة حبلى بالأفكار والإحالات التاريخية الفكرية، الفلسفية ، الفنية .. كتابها منفتحون على السينما، التشكيل ، الفلسفة ، الأديان، الأسطورة، الحكاية الشعبية والأنتروبولوجيا،

ثم إن بعض الروايات المعاصرة تركت العام العادي ومحورت متونها حول بعض الحالات الخاصة في المجتمع:

الأقليات الدينية كاليهودية كما في رواية (في قلبي أنثى عبرية لخولة حمدي) من تونس أو المسحية مثلما في رواية (طشاري) للعراقية أنعام كشاجي وعدد من الرويات المصرية التي عالجت مشاكل الأقباط.

-الشذوذ الجنسي إذ وجدنا عددا كبيرا من الروايات المعاصرة تلامس بدرجات مختلفة موضوع الشذوذ في المجتمع العربي في مشارق العالم العربي ومغاربه من الكتاب الكبار كما فعل علاء الأسواني في (عمارة يعقوبيان) أو من الشباب كرواية (العفاريت) لأبراهيم الحجري من المغرب إذ أحد الأبطال ورواية (طريق الغرام) لربيعة ريحان إذ البطل الزوج يعاني الشذوذ أو

رواية اكتشاف الشهوة لفضيلة الفاروق وكذلك وجدنا في اليمن رواية (زوج حذاء لعائشة) للرواية نبيلة الزبير إذ الزوج (رجل الدين) يمارس الشذوذ

والأكيد أن من يواكب جديد الرواية العربية يلاحظ مدى التركيز على الأبطال الذين يعانون القلق ،الخوف، الازدواجية في الشخصية ومختلف الأمراض النفسية ليتراجع حضور الرواية السياسية ورواية القضايا

وأغرقت الروية العربية المعاصرة في التركيز على الذات بتقديم نماذج تمثل المفرد المنغلق الباحث عن الهدوء وراحته (وراء الفردوس لمنصورة عز الدين نموذجا) فهمشت الرواية المعاصرة القضايا القومية وحتى القضية الفلسطينية التي ظلت تشكل محورا هاما في الرواية العربية بعد النكبة والنكسة كما كان في أعمال غسان كنفاني وإميل حبيبي وغيرهما، حتى لكأنَّ روايتنا أضحت حسب تعبير جورج لوكاتش (تاريخ بحث منحط عن قيم أصيلة في عالم منحط) ويمكننا القول مع حسن مودن في قوله: (إن الوظيفة المركزية للرواية لم تعد هي نشر رؤية للإنسان والعالم والتاريخ موضوعة مسبقا بل وظيفتها أن تكشف بطرقها الخاصة ما لا يمكن أن تقوله إلا الرواية حسب عبارة هرمان روخ)

هذا وقد انتقلت الرواية المعاصرة من الخليج، إلى المغرب العربي، إلى العراق، إلى اليمن..) فحاول كتاب كل قطر معالجة الخصوصية المحلية التي تميزه (البدون في الخليج، القات في اليمن، الأمازيغية في المغرب العربي ، الأقليات الدينية في كل بلد، التدخل الأمريكي في العراق..) كما لم تبق الكتابة الروائية حكرا على الرجال واقتحمت غمارها أقلام نسائية تفوقت في أحيان كثيرة على الذكور لذا أضحت النوعَ الأدبي النموذجي الأنسب للمرحلة ومعينا للمسلسلات التلفزيونية، السينما، وحتى المسرح. فعبرت عن صراع الأجيال والصراع الطبقي وصراع الأديان والحضارات...ودخلت ملرحلة من مراحل التجريب

تعريف التجريب:

يرتبط مفهوم التجريب، جوهريا، بخطاب الحداثة، وترسخ مفهوم التجريب، مع ظهور الاكتشافات العلمية والفلكية والفيزيائية، والبيولوجية التي عرفتها أوروبا،، ويمكن رصد مفهوم التجريب في بنية الثقافة الغربية من خلال

• مكون خطاب فلسفة الأنوار، والدعوة إلى التحرر العقلي من المعتقدات، وتراكماتها التاريخية والغيبية والأسطورية، وتجاوز الماضوية، وإحداث القطيعة الايستمولوجية للمعرفة القديمة.

• مكون ثورة العلوم التجريبية، وخطابها العلمي اتجاه الطبيعة والإنسان والوجود، وإيمانها بقدرة العلم وقوانينه الصارمة في دراسة حقيقتها في واقعها الماضوي

عناصر تشكيل التجريب

ويمكن استخلاص بعض العناصر العامة التي تشكل الرواية التجريبية، وإن كانت هذه العناصر لا يمكن الاعتماد عليها في معرفة هذا الشكل الجديد، لأن الرواية الجديدة (التجريبية) لا تقوم إلا مفهوم خاص، ألا وهو (التجريب في التجريب).

- الشخصيات: لم تعد واضحة المعالم، عوضت بالرموز الأرقام ...
- التبئير: التبئير الخارجي (الرؤية من الخارج) هو أساس العملية السردية.
- الوصف: حضور الوصف وكثافته وتغليبه على باقي القضايا الأخرى السردية وغلب عليه الأنسنة والتشيؤ .
-الزمن: تم التخلي عن السرد الخطي التصاعدي المتسلسل ، واللجوء إلى تكسير المسرود واعتماد نظام الفوضى في تقديم أحداث عمله لدرجة قد يشعر قارئ بعض الأعمال غياب ذلك

الخيط الرابط بين التفاصيلها. نتيجة الإسراف في التكرار والتركيز على تفاصيل ،قد تبدو لمن اعتاد قراءة الأعمال الكلاسيكية ، غير ذات جدوى، عندما يغرق الأبطال في سرد معاناتهم الشخصية في ظل الواقع العربي المأزوم
- حضور التاريخ البعيد والقريب: كما فعل يوسف زيدان في روايتيه عزازيل والنبطي، وربيع جابر في رواية دروز بلغراد، وعدد منهم التفت إلى استخدام التاريخ القريب: سواء زمن ما قبل الاستعمار (تغريبة العبدي)أو بعده.
-حضور العجائبية والغرائبية في النص الروائي كما في روايتي ضريح أبي لطارق إمام ، وفرانكشتاين في بغداد لأحمد سعداوي،
- تتداخل الرواية مع أجناس وأنواع أدبية مختلفة، الشعر، السينما، الرسم، الموسيقى... الاستفادة من الأشكال التراثية خاصة أدب الرحلة كما وجدنا في روايتي النبطي ليوسف زيدان، ورواية تغريبة العبدي المشهور بولد الحمرية لعبد الرحيم الحبيبي...
- توظيف التراث

إذا كان التجريب في الرواية الغربية ارتبط بخطاب الحداثة التنويري، ودعوته إلى تعدد المعارف وحواريتها، وهذا ما جعل الرواية الغربية تحتفل بكتابتها في حقل ثقافي قائم على تجريب الوعي وقدرته على التفكير بحرية، بعيدا عن سلطة المرجع الواحد، أو هيمنة المطلق، وفي السياق "رأت الرواية العربية النور في حقل ثقافي تلقيني مسيطر، والسيطرة لا تلغي النقيض، قوامه سلطة النص الديني المؤول ملحميا بلغة باختين، وسلطة البلاغة المؤولة دينيا تعين النص الديني مرجعا شموليا".
فالشروط الاجتماعية والسياسية والتاريخية التي صاحبت ولادة الرواية العربية كجنس أدبي، مختلفة تماما عن ولادة الرواية الغربية، وذلك يعود- كما ذكرنا سابقا- لاختلاف الحقل الثقافي والمعرفي، مما يجعل التجريب في الكتابة الروائية العربية يحمل التصورات نفسها، التي عرفتها الرواية الغربية،
إن التجريب في الرواية العربية الحديثة تكمن فاعليته الجمالية في مدى قدرة كتابها على طرح الأسئلة الجديدة، وصياغة الأشكال الجديدة.

أشكال التجريب في الرواية

إن التجريب في المنجز الروائي العربي قد اتخذ منحيين الأول راهن فيه كتاب الرواية على التراث السردي لتحقيق الخصوصية وتأصيل الرواية العربية، وبعض راهن على المنجز الروائي العالمي، وعلى النصوص الروائية الحداثية التي يزخر بها، وأيضا على مستوى وعي كتابها باللغة عبر الاشتغال المكثف على اللغة ومستوياتها التعبيرية والدلالية ،وذلك من أجل اختراق السائد السردي والبحث عن أفق حداثي، وقد ساعد فعل المثاقفة على تطوير الرؤية الفنية في الكتابة الروائية .

لقد شهدت الرواية العربية في منتصف السبعينيات بتونس والمغرب وأواخر الثمانينيات بالجزائر لحظة انبهار كبرى أمام اكتشاف الرواية الجديدة الفرنسية، مما أدى إلى إعادة النظر إلى مفهوم الكتابة ووظيفتها وإلى غطاء الاهتمام إلى الجانب التقني منها، ونجد تغليب الوظيفة اللغوية في النص الروائي باعتباره حقلا لغويا يظطلع السرد الهذياني فيه بهدم النسق اللغوي العربي الفصيح، وردم الهوة بين النثر والشعر

تعددت أشكال الاستفادة من تقنيات الرواية العالمية الحديثة بشكل يصعب معه حصرها في نماذج لكن يظهر أن أحد أهم مظاهرها هو انبناء العالم الروائي على اللامعقول واللامألوف " وتداخل الواقعي مع الخيالي ضمن هذا الإطار يبدو أن الوقوف عند تجربة الروائي .....ولعل رواية " ذاكرة الماء للروائي الجزائري ص واسيني الأعرج وذاكرة الجسد للروائية الجزائرية "أحلام مستغانمي" يمكن أن يمثلا نموذجا لهذا التوجه، وقد وسم التشظي الحكائي البناء الروائي للكثير من النصوص الروائية العربية ، كما أن الرواية أصبحت جنسا منفتحا على أشكال التعبير كافة.

المراجع المعتمدة:

-بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي:، ط1، 1999.
- -بوشوشة بن جمعة: التجريب وإرتحالات السرد الروائي المغاربي، المغاربية للنشر،تونس،ط1، 2003

-بوشوشة بن جمعة:سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس، ط1، 2005
-عمري بنوهاشم: التجريب في الرواية المغاربية، الرهان على منجزات الرواية العالمي،منشورات دار الأمان ، الرباط، 2015
-عبد الحميد عقار: الرواية المغاربية، تحولات اللغة والخطاب.شركة النشر والتوزيع ، المدارس، الدار البيضاء،ط1، 2000.
- بحوث في الرواية الجديدة: ميشال بوتور: تر: فريد أنطونيوس، ط1 منشورات عويدات، 1971.
نظرية الرواية والرواية العربية، د/ فيصل دراج، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999،
الرواية العربية ـ المتخيل وبنيته الفنية . بمنى العيد . دار الفارابي ط1 بيروت 2011–

كتاب الإديولوجية العربية المعاصر – عبد الله العروي – دار الحقية – ط3 بيروت 1979
–الرواية المغربية – مدخل إلى مشكلاتها الفكرية والفنية – إدريس الناقوري – سلسلة دراسات تحليلية دار النشر المغربية 1983.